لِفْتَةُ الكَبِدِ في نصيحةِ الولَد

«وصية كتبها الإمام ابن الجوزي»

(٥٩٧ هـ) لولده

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي أنشأ الأبَ الأكبرَ من تراب ، وأَخرج ذُرِّيتَه من الترائب والأصلاب ، وعَضَّد[1] العشائر بالقرابة والأنساب ، وأنعمَ عليَّ بالعلم وعِرفانِ الصواب ، وأَحسن تربيتي في الصِّبا وحَفِظَني في الشباب ، ورزقني ذُريةً أرجو بوجودهم وفُورَ[2] الثواب ، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠ ـ ٤١].

---

(١) أي: ضمّ.

(٢) أي: كثرة الثواب.

أما بعد ، فإني لمّا عرفْتُ شرف النِّكاح وطَلَبِ الأولاد خَتَمْتُ ختمة ، وسألت الله تعالىٰ أن يَرْزقَني عشرة أولادٍ ، فَرزقنيهِم ، فكانوا : خمسةَ ذكورٍ ، وخمسُ إناثٍ ، فمات من الإناث اثنتان ، ومن الذكور أربعة ، فلم يبقَ من الذكور سوىٰ ولدي أبي القاسم ، فسألتُ الله تعالىٰ أن يجعل فيه الخَلَفَ الصالح ، وأن يَبلُغَ به المُـنَىٰ والمناجح .

ثم رأيت منه نوعَ تَوانٍ عن الجِدِّ في طلب العلم ، فكتبتُ له هذه الرسالة ، أَحُثُّه بها وأُحركه على سلوك طريقي في كَسْبِ العلم ، وأَدُلُّه على الالتجاء إلى الموفِّقِ ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ، مع علمي بأنه لا خاذِلَ لِمَن وَفَّق ، ولا مُرْشِدَ لمن أضلّ ، لكن قد قال تعالىٰ : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر : ١٠٣] ، وقال : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الأعلى : ٨٧] ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

اعلم يا بني ، وفّقك اللهُ للصوابَ !

أنه لم يتميز الآدمي بالعقل إلا ليعمل بمقتضاه ، فاستحضر عقلَك ، وأَعْمِلْ فكرَك ، واخْلُ بنفسك .

تَعَلَّمْ بالدليل أنك مخلوق مكلَّف ، وأنّ عليك فرائِض

أنت مطالَبٌ بها ، وأن المَلَكين يُحصيان ألفاظَك ونظراتِك ، وأن أنفاس الحيِّ خُطاه إلىٰ أجله ، ومقدارَ اللَّبْثِ في الدنيا قليل ، والحبسَ في القبور طويل ، والعذابَ على موافقة الهوىٰ وبيل[1] .

فأين لَذَّةُ أمسٍ؟ رحلتْ وأَبْقَتْ ندماً!! .

وأين شَهوةُ النفس؟ كم نكَّسَتْ رأساً ، وأَزَلَّتْ قدماً ، وما سَعِدَ مَنْ سعد إلا بخلاف هواه ، ولا شَقِيَ مَنْ شقي إلا بإيثار دنياه .

فاعْتبِرْ بِمَنْ مضىٰ من الملوك والزُّهّاد ، أين لَذَّةُ هؤلاء؟ وأين تَعَبُ أولئك؟ بقي الثواب الجزيل ، والذكرُ الجميل للطائعين ، والمقالةُ القبيحة ، والعقاب الوبيل للعاصين ، وكأنه ما جاع مَنْ جاع ، ولا شبع من شبع .

والكسلُ عن الفضائل بِئْسَ الرفيق ، وحُبُّ الراحة يُورث من الندم ما يَرْبو[2] على كل لَذة ، فانتبه واتعب لنفسك .

---

(١) أي : شديد .

(٢) أي : يزيد .

واعلم أن أداء الفرائض واجتناب المَحارم لازم ، فمتىٰ تَعَدّ الإنسانُ فالنارَ النارَ ! ! .

ثم اعلم أنّ طَلَبَ الفضائل نهاية مراد المجتهدين ، ثم الفضائل تتفاوت ، فمن الناس من يرىٰ الفضائلَ : الزهدَ في الدنيا ، ومنهم من يراها التشاغُلَ بالتعبُّد .

وعلى الحقيقة ، فليست الفضائلُ الكاملة إلا الجمعَ بين العلم والعمل ، فإذا حصلا رَفَعا صاحبَهما إلىٰ تحقيق معرفة الخالق سبحانه وتعالىٰ ، وحَرّكاه إلى محبته وخَشيتِهِ والشوقِ إليه .

فتلك الغاية المقصودة ، وعلى قَدْرِ أهل العزمِ تأتي العزائمُ ، وليس كلُّ ما يُراد مُراداً[1] ، ولا كلُّ طالبٍ واجداً ، ولكن على العبد الاجتهاد ، و«كلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له»[2] والله المُستعان .

وأولُ ما ينبغي النظر فيه : معرفةُ الله تعالىٰ بالدليل ، ومعلومٌ أنّ مَنْ رأىٰ السماءَ مرفوعة ، والأرضَ موضوعة ،

---

(١) أي ليس كل ما يريده الإنسان يتحقق له .

(٢) جزء من حديث رواه البخاري ومسلم .

وشاهد الأبنيةَ المُحْكَمَةَ خُصوصاً في جسد نفسه ، علم أنه لابد للصَّنْعةِ من صانع وللمَبْنيِّ مِن بانٍ .

ثم يتأمل صدقَ الرسول ﷺ إليه ، وأكبرَ الدلائل : القرآنَ الذي أَعْجَزَ الخَلْقَ أن يأتوا بسورة من مثله ، فإذا ثبت عنده وُجودُ الخالق - جَلّ وعلا - وصِدْقُ الرسول ﷺ ، وجب تسليمُ عِنانِه إلى الشرع[1] ، فمتىٰ لم يفعل دَلَّ على خَلَلٍ في اعتقاده .

ثم يجب عليه أن يعرف ما يجب عليه من الوضوءِ والصلاةِ والزكاة - إن كان له مال - ، والحجِّ وغيرِ ذلك من الواجبات ، فإذا عَرَفَ قَدْرَ الواجب قامَ به .

فينبغي لِذي الهِمَّة أن يترقىٰ إلى الفضائل فيتشاغل بحفظ القرآن وتفسيره ، وبحديث الرسول ﷺ ، وبمعرفة سيرته وسِيَرِ أصحابِه والعلماءِ بعدهم ، ليَتَخيَّرَ مرتبةَ الأعلىٰ فالأعلىٰ ، ولابد من معرفة ما يُقيم به لسانَه من النحو ، ومعرفةِ طَرَفٍ مستعملٍ من اللغة .

والفقهُ أصلُ العلوم ، والتذكير حَلْواؤُها وأعمُّها نفعاً ،

---

(١) أي التسليم والانقياد له .

وقد رَتَّبْتُ في هذه المذكورات من التصانيف ما يُغني عن كل ماسبق من تصانيف القدماء وغيرها بحمد الله ومَنِّه ، فَأَغْنَيتُك عن تَطلُّب الكتب وجَمْع الهمم للتصنيف ، وما تقف همة إلا لخساستِها ، وإلاّ فمتى عَلَتِ الهِمّة فلا تَقْنَعْ بالدُّوْن .

وقد عرفتُ بالدليل أن الهمة مولودةٌ مع الآدمي ، وإنما تَقْصُرُ بعضُ الهمم في بعض الأوقات ، فإذا حُثَّتْ سارتْ . ومتىٰ رأيتَ في نفسك عَجْزاً فَسَلِ المُنْعِمَ ، أو كَسَلاً فالْجأ إلى الموفِّق ، فلن تنالَ خيراً إلا بطاعته ، ولا يفوتُك خير إلا بمعصيته ، فمن الذي أقبل عليه فلم يَرِدْ[1] كُلَّ مُراد؟ ومَن الذي أعرض عنه فمضىٰ بفائدة ، أو حَظِيَ بغرض من أغراضه؟! .

أَوَما سمعْتَ قول الشاعر :[2]

واللهِ مــا جِئتُكُــمْ زائــراً

إلاوجدتُ الأرضَ تُطوىٰ لــي

---

(١) (يرد) ماضيه : ورد ، أي : بلغ وحصّل.

(٢) الشريف الرضي.

ولا ثَـنَـيْـتُ العَـزْمَ عـن بـابِكـمْ

إلا تَـعَـثَّــرْتُ بـأذيـالـي

وانظر يا بني إلى نفسك عند الحدود[1] ، فتلمح : كيف حفْظُكَ لها؟ فإنه مَنْ راعىٰ روعي ، ومن أهمل تُرِك ، وإني لأَذكر لك بعض أحوالي لعلك تنظر إلى اجتهادي وتسأل الموفِّق لي ، فإنّ أكثر الإنعام عليّ لم يكن بكَسْبي ، وإنما هو من تدبير اللطيف بي ، فإني أذكر نفسي ولي همة عالية وأنا في المَكْتَب ابنُ سِتِّ سنين ، وأنا قرين الصِّبيان الكبار ، قد رُزقت عقلاً وافراً في الصغر يزيد على عقل الشيوخ ، فما أذكر أني لعبت في طريق مع الصبيان قط ولا ضحكت ضَحِكاً خارجاً .

حتىٰ إني كنت ولي سبعُ سنين أو نحوُها أحضر رَحَبَةَ الجامع ، فلا أتخير حلقة مُشَعّبة[2] ، بل أطلب المحدث فيتحدث بالسِّيرَ ، فأحفظ جميع ما أسمعه وأذهب إلى البيت فأكتبه .

---

(١) معنى الحدود هنا : ما حدَّه الله ، أي الحلال والحرام .

(٢) أي : متنوعة الموضوعات .

ولقد وفق لي شيخنا أبو الفضل أبي ناصر ـ رحمه الله ـ وكان يحملني إلىٰ الشيوخ فأسمعني المُسْنَد[1] وغيره من الكتب الكبار، وأنا لا أعلم ما يراد مني، وضَبَطَ لي مسموعاتي إلىٰ أن بَلغْتُ، فناولني ثَبْتَها[2]، ولازمتُه إلىٰ أن تُوُفي ـ رحمه الله ـ فنلتُ به معرفة الحديث والنقل.

ولقد كان الصبيان ينزلون إلى دجلة ويتفرجون على الجسر وأنا في زمن الصغر وأقعد حُجْزَةً[3] من الناس إلى جانب الرَّقة[4] فأتشاغل بالعلم.

ثم أُلْهِمْتُ الزهد فسردتُ الصوم، وتشاغلت بالتقلل من الطعام وألزمتُ نفسي الصبر فاستمرتْ، وشمرتُ ولازمتُ وعالجتُ السهر، ولم أقنَعْ بفن من العلوم، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث، وأتبع الزُّهّاد.

ثم قرأت اللغة ولم أترك أحداً ممن يروي ويعظ، ولا غريباً يقدم إلا وأَحْضُره وأتخير الفضائل، وكنت إذا

---

(١) مسند الإمام أحمد وفيه زهاء ثلاثين ألف حديث.

(٢) قائمة فيها مجموع مسموعاته.

(٣) بعيداً عن الناس.

(٤) الرّقة: الأرض جانب الوادي.

عَرَضَ لي أمران أُقدم في غالب الأحوال حق الحق ، فأَحسنَ اللهُ تدبيري وتربيتي ، وأجراني على ما هو الأصلح لي ودفع عني الأعداءَ والحسادَ ومن يكيدُني ، وهيّأ لي أسباب العلم ، وبعث إليَّ الكتب من حيث لا أحتسب ، ورزقني الفهمَ وسرعة الحفظ ، والحظَّ وجودة التصنيف ، ولم يُعْوِزْني شيئاً من الدنيا ، بل ساق إلي من الرزق مقدار الكفاية وأَزْيَدَ ، ووضع لي من القبول في قلوب الخلق فوق الحد ، وأوقع كلامي في نفوسهم فلا يرتابون بصحته .

وقد أسلم على يدي نحوٌ من مئتي من أهل الذمة ، ولقد تاب في مجالسي أكثر من مئة ألف ، وقد قطعت أكثر من عشرين ألف سالف مما يتعاناه الجُهّال(١) .

ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نَفَسي من العَدْوِ لئلا أُسْبَقَ ، وكنت أُصبح وليس لي مأكل ، وأُمسي وليس لي مأكل ، ما أذلّني الله لمخلوق قط ، ولكنه

---

(١) أي : تاب عند المؤلف أولئك الذين كانوا يُطيلون السالفة وهي مقدّم العنق من الأذن إلىٰ الترقوة وإطالة السالفة مظهر من مظاهر الخنوثة أو التشبه بالكفار .

ساق رزقي لصيانة عرضي ، ولو شرحتُ أحوالي لطال الشرح.

وهاأنا قد ترى ما آلت حالي إليه وأنا أجمعه لك في كلمة واحدة وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فأنتبه يا بني لنفسك ، واندم على ما مضىٰ من تفريطك ، واجتهد في لحاق الكاملين ما دام في الوقت سَعة ، واسقِ غصنك ما دامت فيه رطوبة ، واذكر ساعتك التي ضاعت فكفىٰ بها عظة ، ذهبت لذة الكسل فيها وفاتت مراتب الفضائل.

وقد كان السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ يحبون جمع كل فضيلة ويبكون على فوات واحدة منها.

قال إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ: دخلنا على عابد مريض ، وهو ينظر إلى رجليه ويبكي ، فقلنا: ما لك تبكي؟ فقال: ما اغبرّتا في سبيل الله.

وبكىٰ أخرُ فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: عليّ يوم مضىٰ ما صمتهُ ، وعليّ ليلة ذهبت ما قُمْتها.

واعلم أن الأيام تُبْسَطُ ساعاتٍ ، والساعاتِ تُبسَط أنفاساً ، وكل نَفَس خزانة فاحذر أن يذهب نفَس بغير شيء ، فترىٰ في القيامة خزانة فارغة فتندم .

وقد قال رجل لعامر بن عبد قيس : قف أكلمك ، فقال : أَمْسِكِ الشمس .

وقعد قوم عند معروف[1] ـ رحمه الله ـ فقال : أما تريدون أن تقوموا ؛ فإن مَلَكَ الشمس يجرّها لا يَفْتُرُ ! .

وفي الحديث : «من قال : سبحان الله العظيم وبحمده غُرِسَت له نخلةٌ في الجنة»[2] ، فانظر إلى مُضيع الساعات كم يفوتُه من النخيل ! .

وقد كان السلف يغتنمون اللحظات ، فكان كَهْمَس[3] ـ رحمه الله ـ يختم القرآن كل يوم وليلة ثلاث مرات ، وكان أربعون رجلاً من السلف يُصلّون الصبح بوضوء العشاء ، وكانت رابعة العدوية تُحيي الليل كله ، فإذا طلع الفجر

---

(١) معروف الكرخي ، زاهد متصوف ، ت ٢٠٠ هـ .

(٢) رواه الترمذي .

(٣) كهمس بن طلق : عابد من الخوارج ، ت ٦١ هـ .

هَجَعَتْ هجعة خفيفة ثم قامت فَزِعَةً وقالت لنفسها: النوم في القبور طويل.

ومن تفكر في الدنيا قبل أن يوجد رأىٰ مدة طويلة، فإذا تفكَّر فيها بعد أن يخرج منها رأىٰ مُدة طويلة وعلم أن اللَّبْثَ في القبور طويل، فإذا تفكر في يوم القيامة عِلم أنه خمسون ألفَ سنة، فإذا تفكر في اللبث في الجنة أو النار علم أنه لا نهاية له.

فإذا عاد إلى النظر في مقدار بقائه في الدنيا فرضنا ستين سنة مثلاً، فإنه يُمضي ثلاثين سنة في النوم، ونحواً من خمسَ عشَرَ في الصِّبا، فإذا حسب الباقي كان أكثر، في الشهوات والمطاعم والمكاسب، فإذا خلّص ما للآخرة وجد فيه من الرياء والغفلة كثيراً، فبماذا تشتري الحياة الأبدية، وإنما الثمن هذه الساعات؟.

ولا يُؤيسُك يا بني من الخير ما مضىٰ من التفريط، فإنه قد انتبه خلق كثير بعد الرقاد الطويل. فقد حدثني الشيخ أبو حكيم عن قاضي القضاة الشيخ أبي الحسن الدامغاني - رحمه الله - قال: كنت في صبوتي متشاغلاً بالبطالة غير

ملتفت إلى العلم ، فأحضرني أبي ، أبو عبد الله ـ رحمه الله ـ وقال لي : يا بني ، لستُ أبقىٰ لك أبداً ، فخذ عشرين ديناراً وافتح لك دكان خباز وتكّسب ، فقلت له : ما هذا الكلام؟ قال فافتح دكان بزّاز[1] فقلت : كيف تقول لي هذا وأنا ابن قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني؟ قال : فما أراك تطلب العلم! فقلت : اذكر لي الدرس ساعة ، فذكر لي ، فأقبلت على الاشتغال بالعلم واجتهدتُ ، ففتح اللهُ تعالىٰ عليّ .

وحكىٰ لي بعض أصحابه أبي محمد الحلواني ـ رحمه الله ـ قال : مات أبي وأنا ابن إحدىٰ وعشرين سنة ، وكنت موصوفاً بالبطالة فأتيت أتقاضىٰ بعض سكان دار قد ورثتها ، فسمعتهم يقولون : جاء المدبَّر ، أي الرَّبيط ، فقلت لنفسي : يقال عني هذا!! فجئت إلىٰ والدتي فقلت : إذا أردت طلبي فاطلبيني من مجلس الشيخ أبي الخطاب ، ولازمتُه ، فما خرجتُ إلا إلىٰ القضاء ، فصرت قاضياً مدة .

---

(١) البزاز : بائع البَزّ أي الثياب .

قلتُ : ورأيته أنا وهو يفتي ويُناظر .

فألزِمْ نفسك - يا بني - الانتباهَ عند طلوع الفجر ولا تتحدث بحديث الدنيا ، فقد كان السلف الصالح - رحمهم الله - لا يتكلمون في ذلك الوقت بشيء من أمور الدنيا ، وقل عند انتباهك من النوم : «الحمد لله الذي أحياني بعدما أماتني وإليه النشور ، الحمد لله الذي يُمسك السماءَ أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم»(١) .

ثم قم إلىٰ الطهارة ، واركع سنة الفجر ، واخرج إلىٰ المسجد خاشعاً ، وقل في طريقك : «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشايَ هذا ، إني لم أخرج أشَراً ولا بَطَراً ، ولا رياءً ولا سمعة ، خرجتُ اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، وأسألك أن تجيرني من النار ، وأن تغفر لي ذنوبي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»(٢) واقصد الصلاة إلىٰ يمين الإمام ، فإذا فرغت من الصلاة فقل : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه النووي في «الأذكار» وذكر أنه ضعيف .

يحيي ويميت ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير»[1] ـ عشر مرات ـ ثم سبّحْ عشراً ، واحمَدْ عشراً ، وكبّر عشراً ، واقرأ آية الكرسي ، وأسأل الله سبحانه قَبولَ الصلاة.

فإن صَحّ لك فاجلس ذاكراً الله تعالىٰ إلىٰ أن تطلُعَ الشمس وترتفع ، ثم صلِّ واركع ما كُتب لك ، وإن كان ثمان ركعات فهو حسن.

فإذا أعدت درسَك إلىٰ وقت الضحىٰ الأعلىٰ ، فصلِّ الضحىٰ ثماني ركعات ثم تشاغل بمطالعةٍ أو نسخٍ إلى وقت العصر ، ثم عد إلى درسك من بعد العصر إلىٰ وقت المغرب ، وصَلِّ بعد المغرب ركعتين بجزأين ، فإذا صليت العشاء فعد إلىٰ دروسك ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ، فسبحّ ثلاثاً وثلاثين ، واحمد ثلاثاً وثلاثين ، وكَبِّرْ أربعاً وثلاثين ، وقل : «اللهم قِني عذابك يوم تَجمع عبادَك»[2] . وإذا فتحتَ عينيك من النوم فاعلم أن النفس قد أخذت حظها ، فقم إلىٰ الوضوء وصَلِّ في ظلام الليل ،

---

(١) رواه الترمذي بدون «بيده الخير» وقال : حديث حسن.

(٢) رواه البخاري.

ما أمكن ، واستفتح بركعتين خفيفتين ، ثم بعدهما ركعتين بجزأين من القرآن ، ثم تعود إلىٰ درس العلم ، فإن العلم أفضل من كل نافلة .

وعليك بالعزلة ، فهي أصل كل خير ، واحذر من جليس السوء ، وليكن جلساؤك الكتب والنظر في سِيَرِ السلف ، ولا تشتغلْ بعلمٍ حتىٰ تُحْكِمَ ما قبله ، وتَلَمَّحْ سير الكاملين في العلم والعمل ، ولا تقنع بالدون ، فقد قال الشاعر :[1]

ولـم أرَ فـي عيـوب النـاس شيئـاً
كَنَقْـصِ القـادريـن علـى التمـامِ

واعلم أن العلم يرفع الأرذال ، فقد كان خلقٌ كثير من العلماء لا نَسَبَ لهم يُذكر ، ولا صورة تُستحسن ، وكان عطاء بن أبي رَباح أسودَ اللون ، مستوحشَ الخِلْقة ، وجاء إليه سليمان بن عبد الملك ـ وهو خليفة ـ ومعه ولده ، فجلسوا يسألونه عن المناسك ، فحدّثَهم وهو معرض عنهم بوجهه ، فقال الخليفة لولديه : قوما ولا تَنِيا ، ولا تَكْسَلا

---

(١) وهو المتنبي .

في طلب العلم ، فما أنسىٰ ذُلَّنا بين يدي هذا العبد الأسود .

وكان الحسن مولىٰ - أي مملوكاً - وابن سيرين ومكحول وخلق كثير ، وإنما شَرُفوا بالعلم والتقوىٰ .

واجتهد يا بني في صيانة عِرضك من التعرض لطلب الدنيا والذل لأهلها ، واقنع تَعِزَّ ، فقد قيل : من قنع بالخبز والبقل لم يستعبدْه أحد .

ومرّ أعرابي على البصرة فقال : من سيد هذه البلدة؟ قيل له : الحسن البصري ، قال : وبِمَ سادهم؟ قالوا : لأنه استغنىٰ عن دنياهم وافتقروا إلىٰ علمه .

واعلم - يا بني - أن أبي مُوسِراً وخلّفَ ألوفاً من المال ، فلما بلغتُ دفعُوا لي عشرين ديناراً ودارين ، وقالوا لي : هذه التَّرِكَة كلُّها ، فأخذت الدنانير واشتريت بها كتباً من كتب العلم وبعتُ الدارين وأنفقتُ ثمنها في طلب العلم ، ولم يبق لي شيء من المال ، وما ذُلَّ أبوك في طلب العلم قطّ ، ولا خرج يطوف في البلدان كغيره[1] من الوعّاظ ، ولا بعثَ رُقْعَةً إلىٰ أحد يطلب منه شيئاً قط ،

---

(١) أي : سعياً في طلب المال .

وأموره تجري على السَّداد ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ـ٣].

يا بني! ومتىٰ صحّت التقوىٰ رأيت كل خير، والمتقي لا يرائي الخلق ولا يتعرض لما يؤذي دينه، ومن حفظ حدودَ الله حفظه الله. قال رسول الله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «احفظِ اللهَ يحفظْك، احفظ الله تجدْهُ أمامك»(١)، وأعلم يا بني أن يونس عليه السلام لما كانت ذخيرته خيراً نجا بها من الشدة. قال الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤]، وأما فرعون فلما لم تكن له ذخيرةُ خير لم يجد في شدته مَخلصاً فقيل له: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١]. فاجعل لك ذخائر خيرٍ من تقوىٰ تجد تأثيرها.

وقد جاء في الحديث: «ما من شاب اتقىٰ الله في شبابه إلا رفعه اللهُ في كِبَره»(٢).

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]. وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ

---

(١) رواه أحمد والترمذي.

(٢) لم أقف عليه.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

واعلم أن أوفىٰ الذخائر غَضُّ الطرف عن محرّم، وإمساك اللسان عن فضول كلمة، ومراعاةٌ لِحَدٍّ، وإيثارُ الله - سبحانه وتعالىٰ - على هوىٰ النفس، وقد عرفت حديث الثلاثة الذين دخلوا إلى غار فانطبقت عليهم صخرة، فقال أحدهم: «اللهم إنه كان لي أبوانِ وأولاد فكنت أقف بالحليب على أبويّ أسقيهما قبل أولادي فإن كنتُ فعلتُ ذلك لأجلك فأفرِج عنا، فانفرج ثلث الصخرة، وقال الآخر: اللهم إني استأجرت أجيراً فتَسَخَّطَ أجرَه، فاتّجرْتُ به، فجاء يوماً فقال: ألا تخاف الله وتعطيني أجرتي؟ فقلت: انظر إلى تلك البقرة ورعاتها فخذها، فإن كنتُ فعلتُ ذلك لأجلك ففرج عنَّا، فانفرج ثلثا الصخرة، فقال الأخر: اللهم إني علقت بنت عم لي فلما دنوت منها قالت: اتق الله ولا تَفُضَّ الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها، فإن كنتُ فعلتُ ذلك لأجلك ففرّج عنا، فرُفعت الصخرة وخرجوا»(١).

ورُئي سفيان الثوري - رحمة الله عليه - في المنام،

---

(١) رواه البخاري ومسلم مع اختلاف في اللفظ.

فقيل له: ما فعل اللهُ بك؟ قال: ما كان إلا أنْ وُضعتُ في اللحد، فإذا أنا بين يدي رب العالمين، فدخلت فإذا بقائل يقول: سفيان. قلت: سفيان. قال تَذْكُرُ يوم آثرتَ اللهَ على هواك؟ قلت: نعم، فأخذتني صواني النثار في الجنة[1].

وينبغي أن تسمو همتك إلىٰ الكمال، فإن خلقاً وقفوا مع الزهد، وخلقاً تشاغلوا بالعلم، ونَدَرَ أقوام جمعوا بين العلم الكامل والعمل الكامل.

وأعلم أني قد تصفحت التابعين ومن بعدهم، فما رأيت أحظىٰ بالكمال من أربعة أنفس:

سعيد بن المسيب، والحسن البصري، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل رضي الله عنهم، وقد كانوا رجالاً وإنما كانت لهم هممٌ ضَعُفَتْ عندنا، وقد كان في السلف خلق كثير لهم همم عالية، فإذا أردت أن تنظر إلىٰ أحوالهم، فانظر في (كتاب صفوة الصفوة) وإن شئت تأمَّلْ أخبارَ سعيد والحسن وسفيان وأحمد، رضي الله عنهم، فقد جمعت لكل واحد منهم كتاباً.

---

(١) أي: الآنية التي تُنثر في الأفراح إكراماً للضيف حيث يأخذ ما يصل ليده.

وقد علمتَ يا بني أني صنفت مئة كتاب[1] ، فمنها التفسير الكبير : عشرون مجلداً ، والتاريخ : عشرون مجلداً ، وتهذيب المسند : عشرون مجلداً ، وباقي الكتب بين كبار وصغار يكون خمسة مجلدت ومجلدين وثلاثة وأربعة وأقل وأكثر ، كفيتُك بهذه التصانيف عن استعارة الكتب ، وجمع الهمم في التأليف ، فعليك بالحفظ ! وإنما الحفظ رأس المال والتصرف ربح ، وأصدق في الحالين في الالتجاء إلىٰ الحق سبحانه ، فراعِ حدوده ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ [محمد: ٧] ، ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥٢] ، ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ ﴾ [البقرة: ٤٠].

وإياك أن تقف مع صورة العلم دون العمل به ، فإن الداخلين على الأمراء والمقبلين على أهل الدنيا قد أعرضوا عن العمل بالعلم فمنعوا البركة والنفع به .

وإياك أن تتشاغل بالتعبد من غير علم ، فإن خلقاً كثيراً من المتزهدين المتصوفة ضلوا طريق الهدىٰ إذ عملوا بغير علم .

واستر نفسَك بثوبين جميلين لا يشهرانك بين أهل الدنيا

---

(١) لعل هذا إلىٰ وقت تدوين الرسالة .

برفعتها ، ولا بين المتزهدين بِضِعَتِهِما ، وحاسب نفسك عند كل نظرة وكلمة وخطوة فإنك مسؤول عن ذلك ، وعلى قدر انتفاعك بالعلم ينتفع السامعون ، ومتى لم يعلم الواعظ بعلمه زَلّتْ موعظتُه عن القلوب كما يَزِلُّ الماء عن الحجر ، فلا تَعِظَنَّ إلا بِنيّة ، ولا تمشينّ إلا بنيّة ، ولا تأكُلنّ لقمة إلا بنيّة ، ومع مطالعة أخلاق السلف ينكشف لك الأمر .

وعليك بكتاب (منهاج المريدين) فإنه يعلمك السلوك ، واجعله جليسك ومعلمك ، وتَلَمَّحْ كتاب (صيد الخاطر) فإنك تقع بواقعات تُصلح لك دينك ودنياك ، وتحفظ كتاب (جُنّة النظر) فإنه يكفي في تلقيح فهمك للفقه ، ومتىٰ تشاغلت بكتاب (الحدائق) أطلعَكَ على جمهور الحديث ، وإذا التفتَّ إلىٰ كتاب (الكشف) أبان لك مستور ما في الصحيحين من الحديث ، ولا تتشاغَلنّ بكتب التفاسير التي صنفتها الأعاجم ، وما ترك (المغني) و(زاد المسير) لك حاجة في شيء من التفسير .

وأما ما جمعتُه لكَ من كتب الوعظ فلا حاجة بعدها إلىٰ زيادة أصلاً .

وكُنْ حَسَنَ المداراة للخَلْق مع شدة الاعتزال عنهم ، فإن العزلة راحةٌ من خلطاء السوء ، ومُبْقيةٌ للوَقار ، فإن الواعظ خاصة ينبغي له ألا يُرىٰ متبذِّلاً ولا ماشياً في السوق ولا ضاحكاً ، ليَحْسُنَ الظنُّ به فيُنْتَفَعَ بوعظه ، فإذا اضطررت إلىٰ مخالطة الناس فخالطهم بالحلم عنهم ، فإنك إن كشفت عن أخلاقهم لم تقدر على مداراتهم .

وأدِّ إلىٰ كل ذي حقٍّ حقَّه من زوجة وولد وقرابة ، وانظر كل ساعة من ساعاتك بماذا تذهب ، فلا تودّعها إلا إلىٰ أشرف ما يمكن ، ولا تُهملْ نفسَك وعوّدْها أشرف ما يكون من العمل وأحسنَه ، وابعثْ إلىٰ صندوق القبر ما يسرك الوصولُ إليه ، كما قيل :

يـا مَـنْ بـدنيـاه اشْتَغَـلْ
وغَـرّهُ طـولُ الأمـلْ
المـوتُ يـأتـي بَغْتَـةً
والقبـرُ صُنـدوقُ العمـلْ

وراعِ عواقِبَ الأمور ، لِيَهُنْ عليك الصبرُ عن كل ما تشتهي وما تكره ، وإنْ وجدْتَ من نفسك غفلة فاحملها

إلى المقابر ، وذكِّرْها قُربَ الرحيل ، ودَبِّرْ أمرك ـ واللهُ المُدَبِّر ـ في إنفاقك ، من غير تبذير لئلا تحتاجَ إلىٰ الناس ، فإن حفظ المال من الدين ، ولأَنْ تُخْلِف لورثتك خيرٌ من أن تحتاج إلى الناس .

يا بني ، وأعلمْ أننا من أولاد أبي بكر بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وأبونا القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وأخباره موثقة في كتاب (صفة الصفوة) ، ثم تشاغَلَ سَلَفُنا بالتجارة والبيع والشراء فما كان من المتأخرين مَنْ رُزِقَ همةً في طلب العلم غيري ، وقد آلَ الأمرُ إليك ، فاجتهد ألا تُخَيِّبَ ظني فيما رَجَوتُه فيك ولك ، وقد أسلمتك إلىٰ الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وإياه أسألُ أن يوفقكَ للعلم والعمل .

وهذا قَدْرُ اجتهادي في وصيتي ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، والحمد لله مُزيدِ الحامدين ، وصلىٰ اللهُ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسَلَّمْ .